

بين الغرباء .. «الأسرى الأتراك في روسيا : ١٨٧٧-١٨٨٠»

في نهاية حقبة السبعينيات من القرن التاسع عشر كان من الممكن ، أن تسمع اللغة التركية واللغة العربية في الجزء الأوروبي من روسيا ، حيث ظهرت في المدن الكبرى والصغرى الروسية ، مجموعات من الأفراد يتحدثون لغات غير معروفة للمواطن الروسي . كان هؤلاء هم جنود الجيش التركي (العثماني) الذين تحولوا إلى أسرى حرب . وأقصد هنا تلك الحرب التي دارت بين روسيا وتركيا في الفترة من عام ١٨٧٧-١٨٧٨ وانتصرت فيها القوات الروسية علي الإمبراطورية العثمانية ، وتم أسر عدد كبير من الجنود والضباط الأتراك . وفقاً لتقرير رئاسة هيئة الأركان الروسية ، الصادر في الحادي عشر من أبريل ١٨٧٨ وصل إجمالي عدد الأسرى الأتراك إلي ١٤١٧٠٨^{٣٠٤} أي ما يعادل خمسى تعداد الجيش التركي ، الذي كان موزعاً على النحو التالي (٢٢٥ ألف جندي في منطقة البلقان ، ٧٥ ألف في القوقاز^{٣٠٥} أي ٣٥٠ ألف) .

من المعروف أن الأسر لا يعني الذهاب لرحلة في ضيافة أحد الأصدقاء بل إنه يرتبط عادة ، بمشاعر الإهانة والحرمان . وبالرغم من ذلك لم يشعر الجنود الأسرى من الأتراك ، أو من الجنسيات الأخرى التي كانت تعيش في رحاب الإمبراطورية العثمانية ، وتخدم بالجيش التركي بأي من تلك المشاعر علي وجه الإطلاق أثناء تواجدهم في الأسر الروسي . إن هؤلاء الأسرى قد منيوا بهزيمة ساحقة ، ولم يعودوا يمثلون أي مصدر للخطر ضد روسيا ، وقد أظهر المنتصرون حيال أعداءهم السابقين كرم الضيافة ، الذي يعد من خصائص الشعب الروسي .

٣٠٤ عن مقالة : «Свои среди чужих. Пленные турки в России в 1877 – 1880 гг. » والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى» ، ٢٠٠٥ ، عدد ١٣ ، للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov . الأرشيف التاريخي العسكري للدولة الروسية ، ملف رقم ٤٠٠ ، حافظة رقم ٣ وثيقة رقم ٢٠٤٧ السطر ٨١ - ١٠٤ .
٣٠٥ القاموس الموسوعي العسكري ، موسكو ، ١٩٧٢ .

وفقا لبيانات الوثائق الأرشيفية فقد توزع الجنود الأسرى إلى مجموعات، تقدر بعضها بالمئات، والبعض الآخر تقدر بالعشرات في المدن الصغيرة. وبلغ عدد المدن الموزع عليها الجنود الأسرى حوالي ١٦٢ مدينة في القطاع الأوروبي من روسيا^{٢٠٦}. وقد تم تسكين القيادات العليا من الأسرى مثل الباشوات والضباط داخل شقق مدنية، وعلاوة على بدل السكن فقد كانوا يحصلون على إعانات مالية. الباشا علي سبيل المثال كان يتقاضى مبلغ ١٠١٧ روبيل سنوياً، وضابط الأركان كان يتقاضى ٤٤١ روبيل، والضابط ٢٧٦ روبيل^{٢٠٧}. وكان من حق الضابط الأسير أن يتجول بكل حرية في شوارع المدينة ويقوم بشراء ما يريد من احتياجات. وكان من حقه كذلك أن يستأجر لنفسه شقة في حال إذا لم يرق له السكن الذي تم تأجيره له. أما باقي الرتب الأدنى للجنود الأسرى فقد تم توزيعهم على ثكنات الكتائب العسكرية، التي تم إرسالها في ذلك الوقت إلى الجيش المحارب. وفي المدن الصغيرة يُستأجر لهم منزل خاص، ثم يتحول بعد ذلك إلى ثكنة عسكرية. وكانوا ينصبون السرائر ويجلبون الحطب للتدفئة ويجهزون الطعام، والشموع للإضاءة.

جاء في التقرير الطبي العسكري المتعلق بتلك الحرب ١٨٧٧-١٨٧٨ مايلي: « وفقاً لآراء مفتشي الهيئة الطبية التابعة للقوات المسلحة، أنه من الناحية الصحية، لم تكن أماكن الأسرى الأتراك أسوأ حالاً، من الثكنات الخاصة بقواتنا بأي حال من الأحوال. وجدير بالذكر أن كل الثكنات كانت مزودة بأماكن للإستحمام والوضوء والصلاة^{٢٠٨} ».

كانت كمية الطعام المقدمة للجنود الأسرى تعادل كمية الطعام المقدمة للجنود الروس تماما، إلا أنه قد أدخلت بعض التعديلات علي النظام الغذائي بما يتناسب مع عادات وتقاليد الجنود الأتراك. نذكر علي سبيل المثال أنه تم استبدال الخبز الأسمر الروسي بالخبز الأبيض وللحقيقة ليس بنفس الحجم، ولكن بنفس الثمن، واستبدال شوربة الكرنب الروسية الشهيرة بأنواع أخرى من شوربة الحبوب، وفي أحيان كثيرة كان الأتراك يقومون بإعداد الطعام بأنفسهم. وكان كل أسير يُسلم الزي العسكري الرسمي الذي يتكون من معطف، وسترة، وقبعة، ورباطة عنق، وسروال، وحذاء، وطاقيمين من الملابس الداخلية. وفي فصل الشتاء يتم إضافة معطف قصير إلي كل

- ٣٠٦ الأرشيف التاريخي العسكري للدولة الروسية، ملف رقم ٤٠٠،حافظة رقم ٣ وثيقة رقم ٢٠٣٨ السطر ١٠٦-١٠٧.
- ٣٠٧ التقرير العسكري الطبي الخاص بالحرب مع تركيا ١٨٧٧-١٨٧٨ جزء ٣ تقرير عن قوات الاحتلال، سانت بطرسبورج، ١٨٨٧، ص ٣٣١.
- ٣٠٨ المرجع السابق، ص ٢٣٣.

ما سبق وقفازات سميكة للوقاية من الصقيع . وحظى الأتراك برعاية طبية لا تقل في مستواها عن تلك التي تقدم لقواتنا»^{٣٠٩} .

على صعيد آخر آثار وجود كل هذا الحشد الهائل من الأسرى الأتراك ، العديد من المشاكل لدى السلطة المركزية والمحلية . ولأجل التغلب علي هذه المشاكل ، أصدر الإمبراطور ألكسندر الثاني قراراً بتشكيل لجنة متخصصة في شؤون الجنود الأسرى الأتراك برئاسة كبير الياوران الأمير جولستين . ضمت هذه اللجنة عدداً من الأطباء والعاملين في الحقل الطبي . كانوا يقومون بتفقد الأماكن التي يعيش بها الأسرى وتفقد الحالة الصحية لمساكنهم ويستمعون إلى الشكاوى الواردة منهم ، ويرسلون تقارير بكل زيارة يقومون بها إلى العاصمة لاتخاذ الإجراءات المناسبة^{٣١٠} .

كان من حق كل أسير الإلتحاق بالعمل وهذا يعني الاحتكاك المباشر بالروس ، وهو الأمر الذي دفعهم لتعلم اللغة الروسية . كان الأسرى يضعون نصف راتبهم في الخزينة من أجل الإنفاق عليهم ، وباقى الراتب يتصرفون فيه كيفما يشاءون^{٣١١} .

لقد وقع عدد كبير من القوات التركية في الأسر في فصل الشتاء ، بعد عملية حصار طويلة لحامياتهم . وفي البداية كانوا يشعرون بوعكات صحية ، وضعف عام في قواهم البدنية ، وكانوا منهارين معنوياً ، لذلك أصيبوا تلقائياً بالعديد من الأمراض ، وكان مرض التيفود أكثر هذه الأمراض شيوعاً فيما بينهم . وتفيد التقارير الطبية الصادرة آنذاك أن نسبة الإصابة بالأمراض بين الأسرى الأتراك وصلت إلي نحو ٨٦٪ ونسبة الوفاة إلي ١٥٪^{٣١٢} وكان يتم دفن الموتى منهم وفقاً للشريعة الإسلامية . وحيث إنه لا يوجد مقابر للمسلمين كما في مدينة «شوايا» التابعة لمنطقة فلاديمير على سبيل المثال ، فقد تم تخصيص عدة أماكن لدفن الموتى من الأسرى الأتراك^{٣١٣} .

في ديسمبر من عام ١٨٧٨^{٣١٤} بدأ الأسرى يعودون إلى وطنهم بناءً علي القرارات الصادرة من مؤتمر برلين للسلام ، حيث كان يتم عادة نقلهم في البداية إلي أوديسا ونادراً إلي

- ٣٠٩ المرجع السابق من ص ٢٣٥ : ص ٢٣٧ .
 ٣١٠ الأرشيف التاريخي العسكري للدولة الروسية ، ملف رقم ٤٠٠ ، حافظة رقم ٣ ، وثيقة رقم ٢٠٤٧ السطر ١ : ٨٠ .
 ٣١١ المرجع السابق ، وثيقة ٢٠٨٨ ، سطر ٩ .
 ٣١٢ التقرير الطبي العسكري ، ص ٣٤١ .
 ٣١٣ أنظر : إيفانوف . يو . أ «الأسرى الأتراك في المدينة الروسية» ١٨٧٨ ، مجلة الأرشيف الروسي ، العدد ٤ - ٥ ، ٢٠٠٠ ، من ص ٤٣ - ٤٤ .
 ٣١٤ الأرشيف التاريخي العسكري للدولة الروسية ، ملف رقم ٤٠٠ ، حافظة رقم ٣ ، وثيقة رقم ٢٠٥٩ السطر ١٤ .

سيفاستوبول ومنها إلى القسطنطينية عبر البحر. وقد كانت عملية ترحيل الجنود الأسرى بالفعل طويلة، وذلك بسبب كثرة أعداد الجنود الذين كانوا موزعين في كل أنحاء القطاع الأوروبي من روسيا. ولم يفلح البعض منهم في الوصول إلى أماكن التجمع التي من المفترض أن ينطلقوا منها إلى وطنهم؛ بسبب اعتلال صحتهم. أخيراً في سبتمبر ١٨٨٠ صرح رئيس الأركان أنه «لم يعد هناك أي أسير حرب على الأراضي الروسية»^{٣١٥}.

علمنا أن هناك عدداً من هؤلاء الأسرى لم يرجع إلى وطنه. ووفقاً لبيانات القيادة المركزية الروسية كان هناك ما يقرب من ٤٥ أسيراً تركيا؛ قد حصلوا على الجنسية الروسية طواعية بل وصل الأمر إلى اعتناقهم الديانة المسيحية، كما تخلوا عن أسمائهم التركية ويات لديهم أسماء روسية^{٣١٦}. والرتب الأدنى من هؤلاء الأسرى أقدموا على ذلك لأسباب تجارية، معتقدين أنه سيكون لهم في روسيا نصيب أفضل مما كانوا عليه في بلدهم. وعلى الأرجح فقد ظل الضباط يعيشون في بلاد الغربية لأجل؛ عيون الروسيات. وماذا نقول في ذلك؟ إنه الحب!

نذكر على سبيل المثال إحدى تلك الحالات، وهو الملازم مصطفى كامل، الذي كان يعيش في محافظة كاسترومسك، واعتنق المسيحية في الخامس والعشرين من مايو ١٨٧٩، وغير اسمه ليصبح ألكسندر زاتوف. وفي الخامس من أكتوبر ١٨٨٠ تزوج من أرملة روسية برجوازية تدعى فارفارا فيدروفا^{٣١٧}. وأود أن أشير هنا إلي أنه من المرجح أن يكون مصطفى كامل من أصل مصري.

رأينا كيف هيأت الحكومة الروسية مستوى معيشة جيد، للجنود الأسرى الأتراك. فقد تساوا مع الجنود الروس بل وسمح لهم، بالحصول على فرص عمل للتكسب والترجيح منها. وإذا ما نظرنا إلى هذا التصرف سنجد أنه لم يكن إنسانياً فحسب، بل كان ذا نظرة مستقبلية صائبة بعيدة المدى من الناحية السياسية، حيث تشكل لدى هؤلاء الأسرى معتقد قوي، بأن الروس شعب طيب أصيل الطباع، حتى وإن كان «ملحداً». وبعد عام من البقاء في الأسرى في روسيا، عاد أكثر من مائة ألف أسير تركي إلى وطنهم وهم في صحة جيدة وقد أصبحوا أثرياء يرتدون ملابس جيدة وتمتليء جيوبهم بالمال. وقد ترك هذا أثراً

٣١٥ المرجع السابق، وثيقة رقم ٢٠٨٨ السطر ٤٣.

٣١٦ المرجع السابق.

٣١٧ المرجع السابق، وثيقة رقم ٢١٠٧، السطر رقم ١٤.

طيباً لدى الأتراك بوجه عام وخاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار، ذات تأثير ذلك على أقارب ومعارف وأصدقاء هؤلاء الأسرى . سيبدو واضحاً كيف أصبح لروسيا ، والروس مكانة طيبة داخل قلب كل تركي يعيش في رحاب الإمبراطورية العثمانية ، وباتت تلك المكانة راسخة لدى وجدان الشعب التركي ، ويشهد علي ذلك العديد من السياح الروس .

أشار الرحالة الروسي المعروف ألكسندر يلسيف الذي كان يعيش ويتجول ، في دول الشرق الأوسط في عام ١٨٨١ إلى ذلك في مذكراته : « لقد أثرت الحرب على مئات الآلاف من الأسرى الذين عاشوا في ضيافة الروس بشكل حضاري بل ظهر أثرها علي كافة سكان الإمبراطورية التركية ، حتى يمكنك أن تلتقي على ضفاف نهر النيل بمواطن يتحدث الروسية . وأشار يلسيف إلى حوار مع الصاغ المصري الذي عاد لتوه من الأسر الروسي^{٣١٨} .

من المثير للدهشة أن الذاكرة التاريخية عن تلك الفترة ، التي مكثها الأسرى الأتراك في الأسر الروسي مازالت قوية . يقول المرشد المصري للطبيب ألكسندر جيفاجو من موسكو ١٩١٠ : «إن الناس هنا في مدينة الإسكندرية تألف الروس ، وتكن لهم كل الود والحب، إذ أن العائدين من الأسرى الأتراك بعد الحرب ، قد أشادوا بمواطنوكم ومدحهم بقوة^{٣١٩}» . وهناك رواية أخرى لشاهد عيان ، وهو الصحفي الروسي البارز فاسيلي نيمروفيتش دانتشينكه الذي عمل في فترة شبابه ، مراسلاً عسكرياً أثناء تلك الحرب التي دارت بين روسيا وتركيا . وكتب بعد مرور نصف قرن من تلك الحرب في عام ١٩٢٦ : «إن العلاقة الطيبة التي يكنها العرب للروس تعود إلى تلك الذكريات الجميلة التي حملها الآباء والأجداد الذين كانوا بالأسر الروسي من عام ١٨٧٧-١٨٧٨ ، حيث كانوا يقصون علي أبنائهم وأحفادهم ما وجدوه من كرم ضيافة ، لدى الشعب الروسي الطيب»^{٣٢٠} .

من المعروف أن الحرب تعني الموت والدمار . وغالباً ما تخلق حالة من الشعور بالعداء بين شعوب الدول المتحاربة ، يبقى أثرها لوقت طويل . ولكن لكل قاعدة حالات استثنائية والأمهنا يتعلق بطبيعة المعاملة التي كان يتلقاها ، العدو المهزوم من الفريق المنتصر . فالعرب التي دارت بين روسيا وتركيا ١٨٧٧-١٨٧٨ ساهمت في إحداث حالة من التقارب بين

٣١٨ أنظر : إليسيف . أ . ي «الطريق إلي سيناء» ، سانت بطرسبورج ١٨٨٣ ، من ص ٢ : ص ٤ .
 ٣١٩ أنظر : جيفاجو . الطبيب - عالم المصريات ، موسكو ١٩٩٣ ، ص ١٤٤ .
 ٣٢٠ أنظر : نيمروفيتش ، دانتشينكو فاسيلي «أفريقيا في عيون المهاجرين» ، موسكو ٢٠٠٢ ، ص ١٣٩ .

شعوب البلدين بشكل أكبر من تأجيج مشاعر العداة بينهما . فالأتراك والعرب الذين عادوا إلى أوطانهم من الأسر الروسي ، بات لديهم انطباع قوي عن تلك الحضارة العظيمة والمبهرة لأعدائهم المجاورين لهم . وقد تجاوز الروس مع مسلمي الشرق الذين بدوا لهم أنهم أيضا أناس عاديين مثلهم ، واستفادوا منهم دروس محددة . وقد بدا ذلك واضحا في أعوام الحرب العالمية الأولى ، عندما اختفت معالم القسوة الصارمة من جانب الأعداء علي جبهة القوقاز ، وأثناء سقوط الإمبراطورية العثمانية ، وأثناء خروج قوات الروس «البيض» عبر المضيق في تركيا ومنها إلى البلقان .